

ميثودانية الشعر العربي القديم الأسس والمنطلقات في النقد العربي المعاصر

د. محمد بلوحي¹

ميثودانية الشعر الجاهلي من الغايات الكبرى التي حاولت القراءة الأسطورية العربية أن تثبت، معتبرة هذا الشعر أنه مبني في جوهره على لغة منسية، تسربت إليه من الكوناني الجمعي، فكانت الأسس في صنع فضاء النص وفضاء الصورة الشعرية فيه، ومن ثم دلت القراءة الأسطورية العربية على محاولة لتلمس العناصر الميثودانية في الشعر الجاهلي، بوصفه الرحم الأول للثقافة العربية، و النص المتكامل الذي وصل إلينا، وأن القراءات العربية مسواه كان منها تاريخية أم نفسية لن تهتدي إلى محاولة تتبع ما هو ميثولوجي في الشعر الجاهلي، على الرغم من المؤشرات الكثيرة التي تؤكد أن لعنصر الميثوديتي كان حاضرا بقوة في تشكيل الفضاء الشعري.

من بوليفر المقاربات التي حاولت أن تؤسس للقراءة الأسطورية - بلضل تنبيهها إلى أهمية درس الأنثروبولوجي في التأسيس لدراسات التقنية الحديثة ذات الاتجاه الأسطوري - دعوة طه حسين في كتابه "قادة الفكر"، يرى أنه ليس بدعا أن ((تبحث عن فلسفة العرب ودينهم و نظمهم المختلفة وحياة عقولهم و عواطفهم فلا تجدوا إلا في الشعر)) (1) ف الشعر ديوان العرب - كما قيل - ومن ثم فالحياة الفنية هي الجوهر الذي يستمد منه روحه و ديمومته.

بهذا هيأ طه حسين الفكر العربي لتقبل فكرة الاعتماد بالأساطير، ومن ثم ظهرت عدة محاولات لدراسة الفكر العربي عامة و الشعر الجاهلي خاصة من منطلق أنثروبولوجي، فكانت دراسة محمد عبد المعبود خان "الأساطير و الخرافات عند العرب"، التي حاول قسمها التعريف بالأنثروبولوجيا العربية ومدى تفاعلها مع الأنثروبولوجيا عند الأمم الأخرى،.

كما حاول عبد الله الطيب في مؤلفه "المرشد إلى فهم لشعر العرب وصناعتها"، بطريقة استمدت آلياتها و رؤيتها من الخرح الميثوديني أن يبحث عن العلاقة الجوهرية بين التسبب في المعلمات العربية وعائلة العرب الأوبيسن و بالخاصة في نقديس المرأة و ثاقبه الخصوبة. (2) كما فصل القول في كثير من الرموز التي وردت في الشعر الجاهلي و ضمنها كثيرا من الأبعاد الميثودانية.

أما مصطفى ناصيف فقد اهتم في مؤلفه "قراءة ثنية لشعرنا القديم" بالكثير من الجوانب الميثودانية في الشعر الجاهلي، وكان دافعه في ذلك لفتتاحه أن القراءات السابقة للشعر الجاهلي - وبخاصة القراءات ذات السكونج التاريخي أو الفلسفي - كرست نمطية من الأحكام حتى أصبحت أحكاما جاهزة تفرض على هذا الشعر، فأسادت إليه أكثر مما خدمته.

¹ - أستاذ محاضر - قسم اللغة العربية و آدابها - كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة سنجي بعلباس -

الجزائر.

ميثولوجية الشعر العربي القديم الأسس و التطلعات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي

حاول مصطفى ناصف أن يستفيد من نظرية برونغ في الأنماط البدئية و التماذج الطبا في مقارنته للشعر الجاهلي، يحمل هذا النص - في طرحه - في لغته وصوره أشكالا نمطية محددة قَبْليا، و أن الشاعر الجاهلي كانت تنسقه تساويزات عن كسرى القيثبات حول مصير الإنسان وعلاقته بالكون، وكان الشاعر لا يخاطب نفسه أو مجتمعه إلا من خلال استنطاق الماضي، الذي هو - في نظره - هو الترواسب الميثولوجية التي تحمل اللاشعور الجمعي للمجتمع الجاهلي، و قد عبّر عنها في لغة رامية عبر عدة موضوعات تكررت بكثرة في الشعر الجاهلي منها: الظل و الرحلة و الثقة و المرأة و الثور الوحشي وغيرها، وكلها موضوعات تحمل من الأبعاد الميثولوجية ما عبرت عنها اللغة انطلاقاً من جوهر اللغة المنسية، و من ثم كان جوهر الصورة في الشعر الجاهلي هو اللغة المنسية لغة اللاشعور الجمعي، ولذا نجد مصطفى ناصف يقر في بداية المقالة أنها محاولة لفهم الشعر الجاهلي فهي إبطار اللاشعور الجمعي، لأن هذا الشعر في مجمله يدور في فضاء من الطفوس أو الشعائر التابعة من اللاشعور الجمعي.

أرد محمد جويب البهيبي أن يثبت أن أول نص عربي هو ملحنة جلجامش، في محاولة الجريئة في مؤلفه "ملحنة العرب الأولى"، و من ثم فالأصول الأولى للشعر العربي ميثولوجية بالأساس، و أن تكرار من الصور في الشعر الجاهلي تنتمي مع صور ملحنة جلجامش.

كانت هذه المحاولات بمثابة البولكسر الأولى للقراءة الأسطورية للشعر الجاهلي، و التي استطاع أصحابها أن يندمجوا إلى أن مسألة ميثولوجية الشعر الجاهلي مسألة تحتاج إلى بحث وتأسيس، و هذا ما أبرزت المقاربات التي جاءت من بعدهم. تأسيسه وفق آليات علمية وروية مبصرة بمسلك المسألة وعقبتها، فكانت بداية التأسيس لمرحلة التوثيق و الطرح العلمي المبني على مقررات نقدية كبرى.

من الدراسات المبكرة ذات الطابع الأكاديمي المنهج المبني على رؤية و مرجعية أنثروبولوجية متخصصة التي حاولت أن تقارب الشعر الجاهلي مقاربة تعتمد في أدواتها الإجرائية ورواها المعرفية على المنهج الميثودينسي قراءة عبد الجبار المطيلي "قصة ثور الوحش و تفسير وجودها في القصيدة الجاهلية"، فاعتد في هذه المقاربة على أدوات إجرائية تعود في أصولها إلى تمثل التطور الذي لحق حقول المعرفة الإنسانية الحديثة وبخاصة علم النفس و الأنثروبولوجيا و علم الآثار، معتقدا أن النص الجاهلي في جوهره يقوم على أسس اللغة المنسية، العريقة في القدم، و هي بقايا أشواق و مخاوف تشكل في أساسها أبعاد دينية تعبدية، تلبث عنها لغة النص الجاهلي.

يعود عبد الجبار المطيلي إلى التاريخ القديم الذي سبق العصر الجاهلي ليجعل منه و من معانيه التاريخية المصدر الرئيس في مقارنته بصورة الثور الوحش في الشعر الجاهلي، فالتفوش و ما عثر عليه من آثار في شبه الجزيرة العربية، و ما تكررت المصادر القديمة من غير العربية و بخاصة اليونانية و الرومانية منها والتي تؤكد حق جذور الأمة العربية في التاريخ هي المركز الأسس الذي جعل منه عبد الجبار المطيلي خلفية وثقافة في مقاربة الشعر الجاهلي وفق رؤية ميثولوجية.

فالنص الشعري الجاهلي - في نظره - مر بمرحلتين أساسيتين: مرحلة النص الشعري الذي قبل بالهجرة ككل قبيلة من القبائل العربية قبل بروز اللغة الأدبية الموحدة، و هذا التمازج من شعر ضاع أغلبه بفعل عوامل السروالية للشكوهة، وهو النص الشعري الذي يعبر عن تاريخ الأمة العربية قبل لفترة الجاهلية المعروفة بتأنيدها الشعري الذي دون بلغة موحدة. لكن ضياع شعر اللهجات لا يعني أن جوهر الأسطوري ضاع هو كذلك، و إنما

ميثودانية الشعر العربي القديم الأسس والمطلقات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي

استل من قبل الذائرة الشعبية في قلب دني المثلث في كثير من جوانبه بالطقوس والعادات والتقاليد الاجتماعية التي ارتكزت عليها الميثودانية الشعرية الجاهلية في صنع عالم الصورة الشعرية لديها، فتجذرت في الشعر الجاهلي كتقليد أدبي متميز، ((لأن الفكر الإنساني لا يعترف بوجود مثل هذا التنوع والاختلاف الحاد. فلا اختلاف من البداية بين الفكر في خطواته البدائية و أسس التهافت التي يبلغها. فهو متجس ومطرد. و طبق فرايزر هذا المبدأ الأساسي في تطويع الشعر في الجزئين الأول والثاني من كتابه، اعتقد فرايزر أن أي إنسان يقوم بطقوس سحرية لا يختلف من حيث المبدأ عن أي عالم يقوم بإجراء تجربة فزيائية أو كيميائية في معمله. فلا اختلاف بين السحار وطبيب القبائل البدائية، و رجل العلم الحديث، من حيث المبادئ التي يلجأ إليها في تفكيرهما وعملهما)) (3)، و من ثم فلا اختلاف بين البدء في الشعر العربي و المرحلة المتأخرة التي وصلنا من العصر الجاهلي التي وصلنا شعرها، فكله ذو أصول ميثودانية.

يركز هذا الطرح أن لا هوة تفصل بين التراث الشعبي الجاهلي المكتوب بالتهجات المحنية وتنس الشعر الجاهلي المكتوب باللغة الأدبية التي وصلت إلينا، لمعشور الطابع الميثوداني هو العصر الرئيس في الشعر الجاهلي بفعل تسرب الطقوس والعادات عبر اللوحى الجمعي الذي يعبر عن ضمير الشعوب، فتعبر هي بواسطة الأشكال التعبيرية عنه، و الأمة العربية كانت ذات تاريخ ميثوداني خصب تجلى في كثير من الأشكال التعبيرية و بخاصة الشعر منها.

أما المحاولة الثانية التي جعلت من المرجعية الأنثروبولوجية في مقارنة الشعر الجاهلي منطلقاً لها فهي مقارنة نصرت عبد الرحمن ' الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء تلك الحديث' إذ نجدنا نتطرق من مرجعية فلسفية تعتمد في آلياتها على فلسفة كارل بونغ القائلة بنظرية الشعور الجمعي والتمازج العليا في مقارنتها للأصاال الإبداعية الكبرى.

يحاول نصرت عبد الرحمن قراءة الموروث الشعري الجاهلي و بخاصة الصورة الشعرية الجاهلية في ضوء التراكبات الميثولوجية و بخاصة الدينية منها، لكنه يؤكد منذ البداية صعوبة العمل في هذا الحقل من المعركة باعتباره حقل يحتاج إلى دراسة كافية بتشكلات الموروث الميثولوجي العربي و ما أعطاه من رواية وتكوين لأنه يضرب في عمق التاريخ العربي بحدوره، هذا التاريخ الذي لا يزال إلى يومنا هذا مَطْشوراً بين جنات الجزيرة العربية.

فلشعر في طرح نصرت عبد الرحمن ينطق حقيقة عليا، و هذه الحقيقة هي التي تبحث عنها القراءة الجادة في الشعر، لذلك لا حيلة في هذا التعمق من القراءة أن ((نقيم تفرقة حادة بين الفلسفة والشعر: فالفلسفة والشعر البتة للوجدان و خروجه من القوة إلى الفعل، فإذا ما أخذ شكلاً عقلياً فهو الفلسفة، و إذا ما أخذ شكلاً يستحم بآسبه العقل و الروح فهو الشعر))(4)، ولمقاربة شعر أمة كأمة العربية في جاهليتها لابد من الوقوف في الوجدان الميثوديني لهذه الأمة، لأن شعر أي أمة لا يفهم إلا انطلاقاً من أصالتها الدينية، و ثنوية هي الدين الذي كان واسع الانتشار في الأمة العربية في جاهليتها لذلك فقارنا الشعر الجاهلي في ضوء الدين الوثني مقبولة، لأن ((الحياة الجاهلية كما نظم حياة وثنية، و النسي والتماثيل تصاوير لربنا قد عبدها الجاهليون. أيقن الوثني على تشبيه المرأة بما يعيد إن لم يكن للمرأة الموجودة في الشعر الجاهلي شيء من القداسة؟))(5)، فالمستطرق الوثني هو الأسس في مقارنة نصرت عبد الرحمن للشعر الجاهلي، لكن هذا الطرح يتعارض مع ما صرح به في البدء و اتخذ منهجاً نظرياً في مقارنة الشعر الجاهلي، لأن المرحلة الوثنية في تاريخ الأمة العربية

ميثودانية الشعر العربي القديم الأسس والمنطلقات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي
ملاحظة جد مثمرة، و ((أن لا وجود لاختلاف أساسي بين عقيدة البدائي وعقيدة المتحضر، و تبدو أفكار الهجى
للوهلة الأولى وعمية، ولكنها ليست بآلة حال مضطربة أو متناقضة)) (6)، فثلاثون الجمعى لأمة العربية لا
يقل عند المرحلة الوثنية، بل موغل في القدم.

أبدى نصرت عبد الرحمن اهتماما كبيرا بمسألة الرموز في الشعر الجاهلي في مؤلفه "الصورة الفنية
في الشعر الجاهلي" فعند المرأة رمزا للشمس وكذلك الفرس، وعد الطلل رمزا لما تخلقه راحة الشمس على
الإحسان، و السقاة رمزا لإرادة الإنسانية التي تقطم الأهوال من أجل تحقيق الآمال، والثور الوحشي رمزا إلى
القوة التي تحتل قبوة القدر و لدى الآخرين (7)، و كلها رموز ذات أبعاد ميثودانية.

رمزية المرأة في الشعر الجاهلي في الأصل في ذلك، قبلي مثل DIANA ربة تصيد عند الرومان،
وسلمى رمزا للحب لعفيف، وسعد رمز لتربيع و ما يتبعه من سعادة و بلهنية العيش، وأسما رمزا للامراض
وحياة الرعي، و أسمية رمز للحم العطوف، و خولة رمز إلى سيدة الزرع من غنى و يسار، و هرة رمز إلى الحياة
اللاعبة العابثة، حيث الشراب والشهوات الجنسية، أما أم أوفى وأم عمرو و أم معد و أم جندب، فهن رموز سيدة
الحكمة، ولا تغالب عادة إلا في الأمور الجلية، تلك التي يحتاج فيها المرء إلى التؤدة و سعة الصدر، (8) و من
ثم ربط أسماء النساء في الشعر الجاهلي لا بعد رمزي عربي لفظ، وإنما تعداه إلى البعد الإنساني، فأصبحت
أسماء النساء في الشعر الجاهلي رموز لرموزات شأنها في ذلك شأن الحضارات القديمة.

و نحن نؤمن ما قام به نصرت عبد الرحمن من استقراء شامل لبعض موضوعات الشعر الجاهلي،
وعلى كثير من النتائج التي استخلصها، فهي و بحق جديرة بالاعتماد و التأمل، لكن يبدو لنا أنه أخضع الشعر
الجاهلي للمعيار و المقومات الخاصة لأدب لاهوت اليونان والرومان، و الثقافة القديمة في بلاد الشام و ما بين
النهرين. و لنا نذكر أهمية التأثير و التأثر بين الأئمين، بل بين ثقافة الأمم المتجاورة أو المتفاعلة، إلا أنه تبين
لنا في الأساس الثقافي ذلك المدى المحدود للمؤثرات الغربية في الثقافة الجاهلية بعملة، و في الشعر بخاصة.

و لا ننسى - أيضا - أن الرموز الثقافية - و نخص بالذكر الشعرية منها تحديدا - هي الأخرى لا يمكن
استيرادها من الثقافات الأخرى، فالرمز أولا و أغير جزء من الشخصية الحضارية للأمة، واستيعاب رموز أمة ما
من قبل أمة أخرى يعني بالضرورة تمثل ثقافتها وحضارتها، وإذا كان ذلك ممكنا في عصرنا هذا فقد كان في القديم
أشبه بالمستحالات.

و إذا عدنا إلى النص الشعري الجاهلي ذاته، قلنا نجد قدرا كبيرا منه حمل أوجه، يحمل الوجه و ضده،
و ليس من المفيد بناء أحكام جزمة على مادة كهذه، وتعميم تلك الأحكام وإطلاقها.

فكولسة ترسم إلى الزرع الذي يستدعي المطر و لا مطر في شبه الجزيرة العربية، والمرأة رمز للإلهة
الشمس فهي شبهت بالهدر فهل هي كذلك رمز للفر الإله، و تذكر الروايات أن أم أوفى كانت زوج زهير وأم
عمرو كانت زوج الشنفرة و أم جندب كانت زوج امرئ القيس، فهل يختار هؤلاء زوجاتهم رموزا إلى سيدة
الحكمة كسي يذكرها في تسبيحهم. إن الرموز المولفة في الشعر الجاهلي بسيطة بسيطة الحياة العربية، واضحة
وضوح الفكر العربي.

الرموز في الأصل بلى ثقافية متميزة، تجاوزت الدائرة القروية، و ترسخت في الوجدان الاجتماعي،
وتجلت سن بعد في صيغ معرفية تراثية خاصة لكل دائرة ثقافية في نطاق المنظومة الحضارية الواحدة، و بعبارة
أخرى الرمز مضمون معرفي تراثي مكثف، و لكل رمز دلالة أو دلالات لا يعيها بدقة إلا الأفراد المتتبعون إلى هذه

ميثوديتها الشعر العربي القديم الأسس والمعتقدات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي
الوحدة الثقافية المتجسدة أو تلك، وكلما كان هؤلاء أصق فهما دلالة الرمز كان نتائجهم المعرفي - سواء كان
قنيا أم دينيا أم فلسفيا أم علميا - أكثر تأثيرا بتلك الدلالة.

الشعر العربي القديم حافل بالدلالات الرمزية التي عبرت عن كنه الكيان الحضاري للمجتمع العربي،
لأننا حينما نسأل في هذه الثروة العربية، ((ربما خفي علينا مذهبهم في سنن يستملونها بينهم، في حالات
يضعونها في أشعارهم، فلا يمكنك استنتاج ما تحت حكاياتهم، ولا تفهم مثلها إلا سماعا، فإذا قلت على ما أوردته
نُظفَ موقع ما تسمعه من ذلك عند فهمك)) (9)، ألا يبدو هذا القول مقاربة للعلاقة بين الرمز "السُنن" و الصوغ
التراثية "لسماع" و أثر تلك العلاقة في الوحدات الثقافية "الشعر"؟

يسدرس علي البطل في مقارنته "صورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في
أصولها وتطورها" ارتباط صور الشعر العربي القديم - وبخاصة الجاهلي - بالأساطير والمعتقدات الدينية
والممارسات الشعائرية القديمة التي يرى فيها منبع الأول لهذه الصور، وبذلك يتحو هو كذلك منحنى المقاربة
التي تحاول أن تلمس المعطيات الميثوديتها في الشعر العربي القديم وبخاصة الجاهلي منه.

يستهل علي البطل دراسته للشعر العربي القديم بمقدمة نظرية يتناول بالدرس فيها مفهوم الصورة
كمفهوم جمالي وفلسفي قبل أن يكون مصطلحا نقديا، فيبدأ مع الصورة منذ أن تسربت إلى الثقافة العربية مع
رواج الفلسفة الأرسطية التي فصلت بين الشكل والمادة، فتظهر إثرها إشكالات، منها ما يتعلق بطوم القرآن
وتفسيره، وبخاصة عند المعتزلة الذين قالوا بفصل اللفظ والمعنى عند تفسير القرآن الكريم، ومنها ما يتعلق
بالموروث الشعري بفعل انتقال هذا الإشكال إلى ميدان الشعر عند البلاغيين والنقاد وما يؤدي إليه هذا الفصل من
تحطيم الحقيقة الشعرية. وكان ذلك من آثار المنطق الأرسطي على مباحث البلاغة العربية.

بعد مصطلح التخيل المصطلح الفلسفي العربي الذي جمع فيه الفلاسفة العرب - كما يقول علي البطل
- بين المصطلحين الأرسطيين "المحاكاة" و "القليل" ، وبذلك عدّ الفلاسفة العرب "التخيل" نتاجا لمستويات
دنيا في نفس قائله، و لذلك أساء البلاغيون العرب النظر بالتخيل، و عدوه في أغلب الحالات مرادفا للمغالطة.
فالآراء التعبيرية التي تجنح إلى الخيال الذي يلغى الفواصل بين الأشياء أداة غير محبذة قنيا و تعبيريا، و هذا ما
جعل البلاغة العربية تفضل التشبيه على المجاز، و تهتم به أكثر من غيره من المجازات.

حاول الشعر الصوفي - في نظر علي البطل - أن يعيد مسألة الخيال إلى مسارها الصحيح وبخاصة عند ابن
عربي الذي ولف هذه الأداة التعبيرية توظيفا متميزا وبذلك أعاد لها منزلتها السامية بوصفها قوة تستمد قوتها
من عالم المحسوسات ثم تعيد تركيبها في صورة جديدة.

على الرغم من النظرة المتقدمة التي تميز بها الطرح الصوفي في تعامله مع مسألة الخيال، إلا أن
البلاغة العربية لم تستفيد منها في تقويم مسار دراستها. فظل الخيال مبعدا من فضاء التعبير و متهمًا، إلى أن
جاءت الثورة الرومانسية حيث كانت نظرة "كولردج" مجالية ومعقدة لدور الخيال في العملية الإبداعية، و من
اعترفت للخيال القوي بمكانته، و ربط الرومانسيون بين الخلق الفني و الاستعارة باعتبارها قضاء الروابط الجديدة
بين الحفول الدلالية كما ياتيها الخيال.

من هذه المفاهيم الصيقة لتوظيفة الخيال، وبخاصة في حقل الاستعارة، بهنم علي البطل بالاستعارة
بوصفها أداة تصويرية في جوهرها، و ليست مغالطة زخرافية كما هي عند البلاغيين القدماء، بتضاف إلى ذلك
- من ناحية ثانية - علاقتها من حيث هي صورة أسطورية، لغة تعبيرية موهنة في القدم، لجأ إليها الإنسان

ميثوبينية الشعر العربي القديم الأسس والمنطلقات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي

القديم لجعل منها لغة ثانية، تعتمد في جوهرها على الكيال في التعبير عن كبرى المسائل الوجودية، و لذلك رأى أن الاستعارة في الشعر الجاهلي لغة أسطورية ذات بعد ميثوبيني، منطلقاً من التصور الميثولوجي الذي يرى أن ((الكلام الإنساني مجازي في صميمه. فهو زائل بالتشبيهات والاستعارات)) (10) ، فربط الاستعارة ببداية اللغة نفسها حيث تفاوتت استعارتها ورموزها في خلق الأساطير والملاحم.

فالأصول المكونة لمهابة الصورة الفنية، وبخاصة في بعدها الأسطوري هي الأداة الجديدة التي يجعل منها على السبيل وسيلة لمقاربة الشعر الجاهلي في بعده الميثولوجي، ذلك يرى أن مذاكرة الصورة الفنية بمفهومها الحديث و وثقافتها كأي العمل الإبداعي وبخاصة في الشعر الجاهلي يجب أن يرتبط بالطرح "السيكولوجي" عن العقل الباطن والتملاج العليا التي بسطها يونغ بشكل خاص؛ حيث يرى أن الصورة الفنية في الأنسكال الإبداعية الكبرى هي تجسيد لرؤية رمزية تبعت من اللاشعور الجمعي الذي يعتمد في أصوله على عوامل قيسية، وبذلك فالمدح بلجاً في تشكيل صورته إلى المناطق المعرفية ما قبل التاريخية، والتي يمكن التعبير عنها باللغة الأسطورية.

هذه المنطلقات النظرية في مقاربة الشعر الجاهلي هي التي جعلت على البطل طرح الأصول الأسطورية للصورة الفنية في الشعر الجاهلي، معتبراً أن أول ما يواجه الباحث في المكونات الجوهرية والمرئيات الأسسية للصورة في الشعر الجاهلي هي البحث في الأصول الجينولوجيا لهذا الشعر، إلا أن البحث في البدايات الأولى للشعر الجاهلي مهمة شاقة لما ارتبط هذا الشعر فيها بمرحلة شفهية يصعب البحث في مصادرها الإبداعية.

يستلحق على البطل في البحث عن الصورة الفنية في الشعر الجاهلي من الطرح الميثولوجي الذي يربط نشأة الفن بشكل عام بالفكر الديني والممارسات الشعيرية التي نشأ في حضنها، فيرى أن القوم في مكونات الصورة الشعرية الجاهلية، لا يمكن الوقوف عليها إلا إذا عاد الباحث إلى عقائد العرب القديمة ومعتقداتهم، لأن فيها المصدر الرئيس والمادة الأولية لتشكيل الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، التي لا يمكن فهمها إلا من زاوية الدلالات الدينية والأسطورية.

هذا الطرح المنهجي هو الذي حدا بعلي البطل إلى التركيز على البحث في حياة العرب التقليدية والدينية قبل الإسلام، معتبراً أن العرب في جاهليتهم كانوا يعتقدون على الشعر في الكثير من ممارساتهم الدينية وطقوسهم، مستكلاً بما يرويه ابن الكلبي ((أن قبيلة "عك" إذا خرجوا حجاجاً قدموا أمامهم غلامين أسودين، يصبحان "نحن غرابا عك"، فتقول "عك" بعدها مليحة:

"عك إليك عاتية ... عبادك اليمانية ... كيما نحتج ثانية ."

... نجد في هذه الشعيرة الطقوسية آثار شعرية في تلبية "عك"، و هي ثلاث شطرات من الرجز الذي تتجه إليه أنظار الباحثين رتبين فيه البداية الأولى للشعر العربي. و أبا ما تكون هذه البداية، فقد رأينا أن للشعر حياتهم الروحية وأساطيرهم وحضارتهم قبل الإسلام، و من الطبيعي أن يكون للشعر دور في طقوس عاداتهم، إذا كنا قد ففنا هذا الشعر، فليس معنى ذلك أنه لم يوجد على الإطلاق، و إنما علينا أن نتلمس آثاره و تقاليد الفنية التي عاشت في شعر المراحل التي وصلتنا آثارها، حيث تتركز هذه الآثار في الصورة الفنية ((11)) ، باعتبار أن هذه الصورة هي الوعاء لجوهري الذي انتظمت فيه الكثير من الطغوس والشعائر في لغة مجازية عبرت عن العناصر العيافة الباقية في اللاشعور الجمعي للإنسان الجاهلي.

ميثودانية الشعر العربي القديم الأسس والمنطلقات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي

لا يسرد إبراهيم عبد الرحمن في مقارنته " الشعر الجاهلي كشفاية الفنية و الموضوعية " كل الدراسة لمقاربة الشعر الجاهلي وفق رؤية أسطورية، بل يبدأ بمقاربة الصورة الفنية في بعدها الجمالي، إلا أن هذه المقاربة هي التي جعلته يلاحظ أن الشعراء الجاهليين كانوا يشكلون صورهم الفنية من شئت متناظر من الصور، سواء أكان من المحيط المكاني أم من المحيط الحيواني أم من المحيط لكوني، محاولين إيجاد تناسق بينها حتى تكسو الصورة الفلسفية لمسة إبداعية أصيلة. هذا المتناظر الذي خلق منه الشاعر الجاهلي صورة الفنية هو الذي جعل إبراهيم عبد الرحمن يقول بميثولوجية الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، فراح يبحث عن أصولها ومكوناتها الأولى.

لؤيس إبراهيم عبد الرحمن للطرح الميثولوجي للشعر الجاهلي يقدم دراسة واسعة لتساق التاريخي لتصور الجاهلي و ثقافته، معتبرا أن هذا السياق التاريخي هو المصدر الرئيس للرؤى التي أمدت الشاعر الجاهلي بالأنواع المعرفية لتشكيل الصورة الفنية، معتقدا أن هذه الرؤى لم تكتسب العربي بمفرده، وإنما كانت بفعل التثاقف الذي حدث بين الأمة العربية والأمة الأخرى المجاورة لها، لذا - في نظره - أن الأمة العربية لم تكن أمة منعزلة على نفسها معزولة، وإنما كانت متفتحة على ثقافة الحضارات المجاورة لها بخاصة الآشورية و للكنعانية والبنية القديمة، إضافة إلى اليونانية و الرومانية والفارسية.

هذا "التثاقف" هو الذي زود الشاعر العربي القديم بأدوات تعبيرية تستمد أصولها من الرؤى الميثودانية، لذلك لا يمكن فهم الصورة الفنية في الشعر الجاهلي - حسب إبراهيم عبد الرحمن - إلا إذا درست النصوص المستكشفة في شبه الجزيرة العربية، و القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف و ما كتب حولهما من شروح و تفسيرات لأنها اعتمدت في الكثير من أدواتها على المعارف الميثودانية للأمة القديمة، أو ما يسميها بعضهم بـ"الإسرائيليات"، فد ((البحث عن رموز هذه الصور يردنا إلى أصولها "الميثولوجية" التي صدرت عنها، سواء في صورها الحقيقية أو في الصور التي استخالت إليها على يدي هذا الشاعر أو ذاك، و في هذه القصيدة أو تلك، فليس من شك في أن هؤلاء الشعراء قد أحدثوا كثيرا من التحوير في هذه الأصول الميثولوجية " شتمهم في تحوير أية عناصر موضوعية أخرى كانوا يستعرونها من الواقع المادي، و مثل هذا النوع من "التحويل الميثولوجي"، تصور الشعر القديم من التعقيد والغموض بحيث يحتاج إلى معرفة واسعة و عميقة بـ"حضارة" الجاهليين و ثقافتهم وفلسفتهم في الحياة و الموت وتحديد دقيق لتلك الروايد الثقافية و الدينية و الميثولوجية التي تنقلت إليهم من الحضارات المجاورة))،(12) فأسهمت في تشكيل الروايد الأساسية لتصورة في الشعر الجاهلي. فالثقافة الجاهلية في نظر إبراهيم عبد الرحمن محمد ثقافة "تثاقف" بين ما هو عربي وما هو أجنبي، لأن ما تسقى من الثقافة الجاهلية مبني في أسسه على ما هو ديني و ما هو فكري ، أما ما هو ديني فتنتقل إلى العرب في جاهليتهم من الأمم القديمة المجاورة لهم، و كان ذلك إما بفعل الجوار و إما بفعل الاحتكاك في التجارة و الحروب و غيرها، أما ما هو فكري فكانت الأسطورة كشكل تعبري فكري هي القناة التواصلية الأساس فيه.

للتأكيد ميثودانية الشعر الجاهلي يخوض إبراهيم عبد الرحمن محمد بالقول في بدايات العرب في الجاهلية، و التي يرى أنها مرت بمرحلتين أساسيتين: مرحلة الوثنية و عبادة المظاهر الكونية و الكائنات الحية، والتي كان التأثير فيها بالأمم المجاورة كبيرا، و مرحلة ثالثة نزع فيها العرب نحو التوحيد و نبذ التصور الوثني و كان التأثير فيها بدائيات الشرق الأدنى القديم وبخاصة فيما يعرف بعبداء الشفوث السماوي (الشمس-الزهرام) كبيرا.

ميتودينية الشعر العربي القديم الأسس والمنطلقات في النقد العربي المعاصر د. محمد بلوحي
تسردك من خلال هذه الأطروحات التي حاولت القراءة العربية الأسطورية أن تغلب بها الشعر الجاهلي
أن القول بميتودينية الشعر الجاهلي كان هو الدافع الرئيس وراءها، والغاية الكبرى التي تعمل من أجل الوصول
إليها، و أن آليات القراءة الأنثروبولوجية، وبخاصة في مصادرها الرئيسة عند بونج ورايزر و كسور و نورثروب
فسراي هسي جوهر التصور الذي تنطلق منه، مما جعلها قراءة تغلب المنهج على المادة المفروضة، حتى أصبحت
وكتيها دراسة في الأنثروبولوجيا لا في النقد الأدبي، و ذلك ما نلسمه و نحن نتتبع المكون الميتوديني للصورة في
الشعر الجاهلي.

الإحالات:

- 1 - طه حسين: قادة الفكر - دار المعارف - القاهرة - ط9 - ص: 118.
- 2 - ينظر عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعتها - دار الفكر - لبنان - 1970 - ج 3.
- 3 - إرنست كاسيرر: الدولة و الأسطورة - تر: أحمد حمدي محمود - مراجعة أحمد خلكي - ص: 23.
- 4 - نصرت عبد الرحمن: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث - مكتبة الأقصى - الأردن - 1976 - ص: 14.
- 5 - المرجع السابق: ص: 107.
- 6 - إرنست كاسيرر: الأسطورة و الدولة - تر: أحمد حمدي محمود - مراجعة أحمد خلكي - ص: 24.
- 7 - ينظر نصرت عبد الرحمن: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي - ص: 123 - 140 - 150 - 168 - 169.
- 8 - ينظر المرجع السابق - ص: 146 - 149 - 150 - 151 - 152 - 153 - 154.
- 9 - ابن طياتيا محمد بن أحمد: عيار الشعر - تح: طه الحاجري و محمد زغلول سالم - المكتبة التجارية - القاهرة - ص: 1.
- 10 - إرنست كاسيرر: الدولة و الأسطورة - تر: أحمد حمدي محمود - مراجعة أحمد خلكي - ص: 40.
- 11 - علي البنا: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ' دراسة في أصولها و تطورها' - دار الأندلس - لبنان - 1981/2 - ص: 50 - 51.
- 12 - إبراهيم عبد الرحمن محمد: الشعر الجاهلي فضائيا فنيا و الموضوعية - دار النهضة العربية - لبنان - 1980 - ص: 195.